الفصل الخامس

دعنا نقيم دولة مارونية فى لبنان

لقد ذكرنا من قبل الاجتماع الذى عقد فى ٢٧ فبراير ١٩٥٤ بين بن جوريون وشاريت ولافون وديان، حول خطط قيام إسرائيل بغزو كل من مصر وسوريا. فى هذا الاجتماع نفسه، تم وضع النقط الرئيسية لاقتراح محكم من أجل زعزعة جار إسرائيل الأكثر سلمًا فى ذلك الوقت، لبنان. وفى تلك الحالة، لم تحاول طموحات إسرائيل أن تزعم حتى ارتداء ورقة التوت المزورة والخاصة بالأمن أو الدفاع.

«بعد ذلك قام [بن جوريون] بالانتقال إلى موضوع آخر. وقال، الآن هو الوقت لدفع لبنان، أقصد المارونيين فى هذا البلد، إلى إعلان قيام دولة مسيحية. قلت إن هذا كلام فارغ. المارونيون منقسمون. وأنصار الانفصال المسيحى ضعفاء، ولن يجرءون على فعل أى شىء. لبنان مسيحية سيعنى بأن عليهم التنازل عن صور

obeikandl.com

وطرابلس والبقاع. ليس هناك أى قوة يمكنها أن تعيد لبنان إلى حجمها الذى كان قبل الحرب العالمية الاولى، ذلك لأن فى تلك الحالة، ستفقد لبنان سبب بقائها الاقتصادى. كان رد فعل بن جوريون عصبيًا. وبدأ بسرد كل التبريرات التاريخية لقيام لبنان مسيحية محدودة. إن حدث مثل هذا التطور، فإن القوى المسيحية لن تجرؤ على الاعتراض. ادعيت أنه ليس هناك أية عوامل قائمة تساعد على خلق مثل هذا الوضع، وإن كنا سندفع إليه ونشجعه وحدنا، فسوف نورط أنفسنا فى مغامرة لن تعود علينا إلا بالعار. هنا جاءت موجة من الإهانات خاصة بافتقارى للجرأة، وضيق أفقى. علينا أن نرسل مبعوثين، وأن ننفق بعض المال. قلت إننا لا نملك المال. الإجابة كانت، هذا ليس صحيحًا. يجب إيجاد المال، إن لم يكن فى الخزانة، ففى الوكالة اليهودية! هذا المشروع يستحق أن نلقى بمئة ألف، نصف مليون، مليون دولار. عندما يحدث ذلك سوف يحدث تغييرا جوهريا فى الشرق الأوسط، وعصر جديد سيبدأ. داهمنى الإرهاق من الصراع ضد التيار». (٢٧ فبراير ١٩٥٤، ٣٧٧)

فى اليوم التالى، بعث بن جوريون بالرسالة التالية إلى شاريت:

إلى موسى شاريت رئيس الوزراء

سديه بوكير ٢٧ فبراير، ١٩٥٤

«عندما انسحبت من الحكومة؛ قررت من قلبى أن أكف عن التدخل أو التعبير عن رأى فى الشئون السياسية الجارية حتى لا أثير مشاكل للحكومة بأى شكل. وإن لم تقوموا ثلاثتكم، أنت ولافون وديان، بدعوتى، لما قمت، بدعوة من نفسى، بالتعبير عن رأيى عما حدث أو ما يجب أن يحدث. ولكن بما أنكم دعوتمونى، فإنى أرى أنه من

واجبى تلبية رغبتكم، وخاصة رغبتك كرئيس وزراء. لهذا السبب، سمحت لنفسى بان أعود إلى مسألة واحدة لم توافق عليها لنناقشها مرة أخرى، وهى مسألة لبنان.

. . . من الواضح أن لبنان هى أضعف حلقة فى جامعة الدول العربية. الأقليات الأخرى فى الدول العربية كلهم مسلمون باستثناء الأقباط. ولكن مصر هى أكثر الدول العربية إحكاما وصلابة، والأغلبية هناك تضم كتلة صلبة واحدة، من عنصر ودين، ولغة واحدة، والأقلية المسيحية لا تمثل خطرًا على وحدتهم السياسية والوطنية. ولكن الوضع ليس صحيحًا بالنسبة للبنان. فهم أغلبية فى لبنان التاريخية، وهذه الأغلبية لديها تقاليد وثقافة مختلفة عن تلك الخاصة بالأعضاء الآخرين فى الجامعة العربية. وأيضًا داخل الحدود الأوسع (ذلك كان أسوأ خطأ قامت به فرنسا عندما قامت بتوسيع حدود لبنان)، المسلمون ليسوا أحرارًا فى تصرفاتهم، حتى ولو كانوا أغلبية هناك (ولا أعرف إن كانوا بالفعل أغلبية) خوفًا من المسيحيين. لهذا السبب فإن إقامة دولة مسيحية هى عمل طبيعى؛ فلها جذور تاريخية، وسوف تحصل على مساندة دوائر واسعة فى العالم المسيحى، سواء الكاثوليكى أو البروتستانتى. فى الأوقات العادية، ذلك يكاد يكون مستحيلاً. أولا، وخاصة، لأن المسيحيين يفتقرون للشجاعة وللمبادرة. ولكن فى زمن الاضطراب، أو الثورة، أو الحرب الأهلية، فان الأمور تأخذ منعطفًا آخر، وحتى الضعيف سيعلن نفسه بطلاً. ربما (ليس هناك أى تأكيدات فى السياسة) الآن هو الوقت المناسب للعمل من أجل إقامة دولة مسيحية بين جيراننا. بدون مبادرة منا وبدون مساعدتنا القوية، لن يمكن تحقيق ذلك. يبدو لى أن تلك هى المهمة الأساسية ـ على الأقل أحد المهام الأساسية ـ لسياستنا الخارجية. وهذا يعنى أنه يجب

استثمار الوقت والطاقة والوسائل فيها، وأن علينا، أن نتحرك بأى طريقة ممكنة من أجل فرض تغيير جذرى فى لبنان. يجب تعبئة ساسون... والمستعربين الآخرين. إن كان المال ضروريّا، فيجب ألا نستبقى أى كمية مطلوبة من الدولارات، رغم أن المال قد يتم إنفاقه بلا فائدة. يجب أن نركز كل جهودنا على تلك القضية... إنها فرصة تاريخية. ضياع الفرصة مسألة لا يمكن التسامح فيها. ليس هناك تحدى ضد القوى العالمية فى تلك المسألة... يجب عمل كل شئ، فى رأيى، بسرعة وبأقصى طاقة.

رغم كل شىء، فإن الهدف لن يتحقق بالطبع بدون تقليص حدود لبنان. ولكن إذا كان من الممكن العثور على رجال فى لبنان، وآخرين فى المنفى، على استعداد لأن يعبئوا أنفسهم من أجل إقامة دولة مارونية، فإن الحدود الموسعة والأغلبية المسلمة ستكون بلا فائدة لهم، ولن تمثل عاملاً مقلقًا.

لا أعرف ما إذا كان لدينا أحد فى لبنان ـ ولكن هناك سبل مختلفة يمكن من خلالها تنفيذ التجربة المقترحة».

د. ب. ج. (٢٧ فبراير ١٩٥٤، ٢٣٩٧-٢٣٩٨)

بعد أسابيع قليلة رد شاريت قائلا:

السيد ديفيد بن جوريون ـ ١٨ مارس ١٩٥٤.

«.... إننى أفترض دائمًا أنه إن كان هناك أحيانا بعض الأسباب للتدخل من الخارج فى الشئون الداخلية لدولة ما، من أجل مساندة حركة سياسية داخلية لهدف ما، فإنه يتم فى حال أظهرت تلك الحركة بعض النشاط المستقل الذى قد يكون هناك فرصة لدعمه فى، وربما إنجاحه من خلال التشجيع والمساعدة من الخارج. ليس هناك

أى معنى فى محاولة تشكيل من الخارج حركة لا تستطيع أن تتشكل من الداخل. . . من المستحيل ضخ حياة فى جسد ميت.

«حسب معلوماتى، لا يوجد فى لبنان اليوم أية حركة تستهدف تحويل البلاد إلى دولة مسيحية يحكمها المجتمع المارونى. . .

«وذلك لا يدهشنى. إن تحول لبنان إلى دولة مسيحية كنتيجة لمبادرة من الخارج، مسألة غير ممكن تحقيقها اليوم. . . أنا لا أستبعد إمكانية تنفيذ هذا الهدف غداة تعرض منطقة الشرق الأوسط إلى موجة من الصدمات. . . تدمر القوى الحالية وتشكل مجموعات أخرى. ولكن فى لبنان الحالية، بحجم أرضها وسكانها الحاليين وعلاقاتها الدولية، لا يمكن تخيل مبادرة جادة من هذا النوع.

إن المسيحيين لا يمثلون الأغلبية فى لبنان. كما أنهم ليسوا كتلة موحدة، سواء سياسيًا أو اجتماعيًا. فالأقلية الأرثوذكسية فى لبنان تسعى لأن تربط نفسها بإخوانها فى سوريا. هؤلاء غير مستعدين لأن يحاربوا من أجل لبنان مسيحى، أى من أجل لبنان أصغر حجمًا مما هو عليه اليوم، ومنفصلا عن جامعة الدول العربية. بل على العكس، من المتوقع ألا يعترضوا على لبنان متحد مع سوريا، حيث إن ذلك سوف يسهم فى تقوية مجتمعهم والمجتمع الأرثوذكسى عبر المنطقة. . . فى الواقع، هناك مسيحيون أرثوذكس فى سوريا أكثر مما فى لبنان، وأرثوذكس سوريا ولبنان معًا أكثر عددًا من المارونيين.

أما بالنسبة للمارونيين، فإن الأغلبية العظمى منهم ظلوا لسنوات طويلة يساندون الزعماء السياسيين العمليين من مجتمعهم، والذين تخلوا منذ زمن بعيد عن حلم لبنان المسيحى، ويحاولون إقامة تكتل مسيحى ـ مسلم فى البلاد. هؤلاء الزعماء نما لديهم الشعور بأن ما

من فرصة للبنان مارونية معزولة، وبأن الرؤية التاريخية لمجتمعهم تعنى إقامة شراكة مع المسلمين فى السلطة، وفى عضوية لبنان فى جامعة الدول العربية، وذلك بأمل وبقناعة بأن تلك العوامل يمكنها أن تضمن أن يتخلى المسلمون اللبنانيون عن رغبتهم فى وحدة لبنان مع سوريا، وسوف يدعم بينهم تنمية الشعور بلبنان مستقل.

«لهذا السبب، فإن الغالبية العظمى من المجتمع المارونى قد تكون عرضة لأن ترى فى كل محاولة لرفع علم أراضٍ متقلصة وسلطة مارونية، محاولة خطيرة لهدم وضع مجتمعهم، وأمنه، وحتى وجوده نفسه. مثل تلك المبادرة ستبدو كارثة عليهم لأنها سوف تقطع أوصال نسيج التعاون المسلم ـ المسيحى فى لبنان الحاضر، والذى بنى عبر جهود وتضحيات ضخمة من أجل جيل كامل؛ ولأنه قد يعنى إلقاء المسلمين اللبنانيين فى أحضان سوريا، وأخيرًا، لأنه قد يعيد بشكل قاتل، الكارثة التاريخية وهى ضم لبنان إلى سوريا والقضاء تمامًا على شخصيتها من خلال ذوبانها داخل دولة إسلامية كبيرة.

«قد تعترض على أساس أن تلك الحجج غير ذات موضوع، حيث إن الخطة وضعت على أساس اقتطاع الأقاليم المسلمة من لبنان فى صور والبقاع وطرابلس. ولكن من يستطيع أن يتنبأ ما إذا كانت تلك الأقاليم سوف تتنازل بالفعل عن روابطها مع لبنان وصلاتها السياسية والاقتصادية مع بيروت؟ من يستطيع أن يؤكد أن جامعة الدول العربية ستكون مستعدة لأن تتنازل عن وضع منحها إياه انتساب لبنان لها. . . ؟ من سيشهد على أن الحرب الدموية التى ستتفجر حتما نتيجة لمثل تلك المحاولة، سوف تظل محدودة فى لبنان ولن تدفع سوريا إلى أرض المعركة فورًا؟ من يستطيع أن يتأكد

من أن القوى الغربية سوف تقف كمراقب ولن تتدخل فى التجربة قبل تحقيق الدولة اللبنانية المسيحية؟ من يستطيع أن يضمن أن الزعامة المارونية نفسها لن تدرك كل المسائل التى طرحت عاليه، ولذلك سوف تتراجع عن مثل هذه المغامرة الخطيرة؟

«. . . هناك أيضًا حجج اقتصادية حاسمة ضد المشروع. إننا لا نناقش المسألة فى أعوام ١٩٢٠/ ٢١. . ولكن ٣٠ عامًا بعد هذا التاريخ. فى خلال تلك الفترة تم دمج جبل لبنان فى وحدة عضوية مع السهل الساحلى فى صور وصيدا، وفى وادى بعلبك ومدينة طرابلس. إنها معتمدة على بعضها البعض، ولا يمكن فصلها تجاريًا أو اقتصاديًا. لم يكن جبل لبنان وحدة واحدة تتمتع بالاكتفاء الذاتى حتى قبل الحرب العالمية الاولى. . . وأدى ضم الأقاليم الثلاثة، فضلاً عن بيروت، إلى دولة لبنان، إلى إمكانية إنشاء اقتصاد متوازن. العودة إلى الماضى لا تعنى إجراء عملية جراحية فحسب ولكن أيضًا تعنى تفكك يؤدى إلى نهاية لبنان. . .

«إننى لا أستطيع أن أتخيل، حتى من تلك الرؤية وحدها، بأن أى منظمة جادة سوف تتعاون مع خطة، فى رأيى، سوف تكون نتيجتها الانتحار الاقتصادى.

«بعد قول كل ما سبق، [يجب أن أضيف] لم أكن أنوى أن أعترض، بل على العكس، كنت سأقوم بلا شك بتأييد الفكرة، وأساعد ايجابيًا أى مظهر من مظاهر التوتر فى المجتمع المارونى يهدف إلى تقوية توجهاته الانعزالية، حتى ولو لم يكن هناك فرصًا حقيقية لتحقيق الأهداف؛ كنت سأنظر إيجابيًا إلى مجرد وجود مثل هذا التوتر وعدم الاستقرار الذى سيتفشى بسببها، وكذلك المشاكل التى كانت سوف تتسبب فيها فى الجامعة، وتحول الانتباه من

التعقيدات الإسرائيلية ـ العربية التى يمكن أن تتسبب فيها، وإضرام حريق يكون دافعا نحو الاستقلال المسيحى. ولكن ما عساى أن افعل إن كان مثل هذا التوتر غير موجود؟ . . . فى الظروف الحالية، أخشى أن أى محاولة من جانبنا سوف تعتبر بسيطة وسطحية، أو أسوأ، ستعتبر مضاربة غير محسوبة ضد الحياة الرغدة ووجود الآخرين نفسه، والاستعداد للتضحية بالخير الأساسى لصالح مميزات تكتيكية مؤقتة لإسرائيل.

«ذلك فضلاً عن أنه، إن لم يتم الاحتفاظ بتلك الخطة سرًا وعرف عنها الآخرون، فإن خطرًا ـ لا يمكن الإقلال من شأنه فى ظروف الشرق الأوسط ـ سوف يسبب لنا خسارة. . . لن تعوض حتى من خلال نجاح محتمل للعملية نفسها. . .»

م. ش. (١٨ مارس ١٩٥٤، ٢٣٩٨ـ٢٤٠٠)

ملاحظة خاطفة فى المذكرات فى ٢٤ أبريل، بيَّنت لنا أنه تم بحث عقد «اتصالات بدوائر معينة فى لبنان» فى ذلك اليوم بين رئيس الوزراء وبعض معاونيه فى وزارة الخارجية. المرة التالية التى ذكرت فيها لبنان، كانت فى ١٢ فبراير ١٩٥٥: نجيب صفير «مغامر ورجل ذو رؤية» عرفه شاريت منذ عام ١٩٢٠، قام لتوه بزيارة للسفير الإسرائيلى فى روما، إلياهو ساسون. . . فيما يبدو إنها كانت بناء على طلب من الرئيس كميل شمعون. لبنان ستكون مستعدة لتوقيع سلام منفصل إن قبلنا الشروط الثلاثة التالية: (أ) ضمان حدود لبنان؛ (ب) مساعدة لبنان فى حالة تعرضه لهجوم من سوريا؛ (ت) شراء الفائض الزراعى اللبنانى. اقترح ساسون. . . عقد اجتماع بينه وبين شمعون خلال زيارة الأخير التالية إلى روما. (١٢ فبراير ١٩٥٥، ٧٢٣)

فى ١٦ مايو، وخلال اجتماع مشترك لكبار المسئولين فى وزارتى الدفاع والخارجية، طرح بن جوريون مرة أخرى طلبًا بأن تفعل إسرائيل شيئًا بخصوص

لبنان. وأكد على أن الوقت مواتيًا بشكل خاص، بسبب تجدد التوتر بين سوريا والعراق، والمشاكل الداخلية فى سوريا. أعرب ديان فوراً عن تأييده الحماسى:

«بالنسبة له (ديان) الشئ الضرورى الوحيد هو إيجاد ضابط، حتى ولو كان برتبة رائد فحسب. علينا إما أن نكسب قلبه أو شراءه بالمال، من أجل دفعه إلى الموافقة على إعلان نفسه منقذ الشعب المارونى. بعد ذلك سوف يدخل الجيش الإسرائيلى إلى لبنان، وسوف يحتل الأراضى الضرورية، وسوف يقيم نظاما مسيحيا يتحالف مع إسرائيل. الأراضى التى تمتد من الليطانى إلى الجنوب سوف تُضم كلها بشكل كامل إلى إسرائيل، وكل شىء سوف يسير على مايرام. إن قبلنا نصيحة رئيس الأركان، فسوف نقوم بذلك غداً، بدون انتظار إشارة من بغداد.

«لم أرغب فى إثارة شجار مع بن جوريون.. أمام ضباطه، واكتفيت بالقول إن ذلك معناه... الحرب بين إسرائيل وسوريا... وفى الوقت نفسه، وافقت على تشكيل لجنة مشتركة تضم مسئولين من وزارة الخارجية والجيش للتعامل مع الشئون اللبنانية... [وحسب بن جوريون] على هذه اللجنة أن تتصل برئيس الوزراء. (١٦ مايو ١٩٥٤، ٩٦٦)

«أيَّد رئيس الأركان خطة لاستئجار ضابط [لبنانى] يوافق على أن يخدم كتابع، بحيث يبدو الجيش الإسرائيلى وكأنه يلبى نداءه «من أجل تحرير لبنان من مضطهديه المسلمين». ذلك سيكون بلا شك مغامرة مجنونة... يجب أن نحاول منع أية تعقيدات خطيرة. واللجنة ـ يجب أن تتولى مهمة البحث فى مهام وتحركات حذرة موجهة إلى تشجيع الدوائر المارونية التى ترفض ضغوط المسلمين، توافق على الاعتماد علينا». (٢٨ مايو ١٩٥٤، ١٠٢٤)

استمرت «التحركات الحذرة». فى ٢٢ سبتمبر، وقع حادث غامض. تعرضت شاحنة فى الجليل، بالقرب من صفد، إلى هجوم. قتل شخصان، وأصيب عشرة. وحتى قبل أن تصل التحقيقات إلى تحديد من أين جاء المهاجمون (كان هناك فى ذلك الوقت، ثلاثة افتراضات متناقضة)، طلب ديان القيام بعمل انتقامى ضد لبنان. وتم بالفعل اختيار قرية لبنانية اشتبه فى أن تكون قاعدة المهاجمين. سيتم إخلاءها من سكانها خلال الليل، وسيتم تدمير منازلها. اعترض شاريت على قيام إسرائيل بفتح جبهة جديدة على طول حدود، كانت هادئة تماما منذ عام ١٩٤٨، ولكن هذا بالضبط ما أراده ديان: زعزعة استقرار لبنان والبحث عن شخصية تسبق الرائد سعد حداد الذى أعلن الدولة المارونية فى عام ١٩٧٩. هذا العمل الإرهابى نقطة انطلاق مثالية لتنفيذ خططه الموجهة إلى إثارة الاضطراب.

لكن شاريت اعترض على تحرك فورى. فى ذلك الوقت، تأجلت مؤامرة إسرائيل ضد لبنان لأسباب أخرى. فى أول أكتوبر عام ١٩٥٥، أعطت الحكومة الأمريكية عبر وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، «الضوء الأخضر» لإسرائيل، لمهاجمة مصر. وهكذا أصبحت كل طاقات المؤسسة الأمنية الإسرائيلية مركَّزة بالكامل للاستعداد للحرب، على أن تشن بعد عام بالضبط. فى صيف عام ١٩٥٦، وفى الإعداد لعملية سيناء ـ السويس، تم إحكام التحالف السياسى والعسكرى مع فرنسا. هذا التحالف سوف يستمر، فعليّا، حتى عشية حرب ١٩٦٧، وسوف يمنع إسرائيل، خاصة بعد تولى ديجول السلطة فى فرنسا عام ١٩٥٧، من تنفيذ خططها لتقسيم دولة تعتبرها باريس تنتمى إلى دائرة نفوذها [لبنان]. كان من المقرر قيام إسرائيل بقصف جنوب لبنان لزعزعة استقرار تلك البلاد، فى عام ١٩٦٨، بعد حرب ١٩٦٧، وبعد تعيين ديان وزيراً للدفاع فى حكومة ليفى إشكول، وبعد انتقال إسرائيل النهائى من التحالف مع فرنسا إلى التحالف مع الولايات المتحدة[٦]. منذ ذلك الوقت، ولسنوات بعدها، هدف هذا التحالف غير المقدس إلى استغلال دائم لكل الوسائل الممكنة من أجل تصعيد

العنف الإرهابى والتدمير السياسى فى لبنان، وذلك حسب المخطط الإسرائيلى فى الخمسينيات. كل هذا غنى عن الذكر، تم تدبيره والتخطيط له قبل ظهور الإرهاب الفلسطينى بزمن[٧]. يجب القول إن كل المشاكل التى واجهتها إسرائيل، عبر كل تلك السنوات فى محاولتها تنفيذ طموحها القديم لتقسيم لبنان، وفصله عن العالم العربى، يمثل دليلا على أن كل تلك المؤامرات ما هى إلا عمليات خارجية تخالف الطموحات الحقيقية للشعب اللبنانى، أيًا كانت توجهاته الدينية.

* * *

obeikandl.com